مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

گلوري م. ليوُ.* أمريكا آدم سميث: كيف أصبح الفيلسوف الاسكتلندي أيقونة للرأسمالية الأمريكية

مراجعة: لاني إبنشتاين **

ترجمة: مصباح كمال***

Reviewed for EH.Net by Lanny Ebenstein, University of California, Santa Barbara.

يمكن قراءة النص الإنجليزي للمراجعة باستخدام هذا الرابط:

https://eh.net/?s=Lanny+Ebenstein

Published by EH.Net (September 2023).

Glory M. Liu. *Adam Smith's America: How a Scottish Philosopher Became an Icon of American Capitalism*. Princeton: Princeton University Press, 2022. xxxii + 346 pp. $35 (hardback), ISBN 978-0691203812.

لقد نال كتاب گلوري ليو **أميركا آدم سميث** الثناء الذي يستحقه بلا ريب. وهو عمل ذو عمق علمي ونطاق واسع. على الرغم من أن الكثير قد كتب عن هذا العالم الاسكتلندي لعدة قرون خلت، إلا أن هذا الكتاب لا يقدر بثمن. فعند قراءته، سيتكون حتى لدى علماء سميث القدامى فكرة أفضل بكثير عن تطور تفسيرات العمل الفكري لسميث، وبالتالي لمؤلفاته نفسها.

مثل العديد من المفكرين والفلاسفة العظماء، وربما معظمهم، كان سميث شخصية متقلبة تخضع أعمالها لوجهات نظر متنوعة. منذ البداية تقريبًا، كان هناك سميث تقدمي وسميث محافظ. إن عمل ليو يضعه بدقة في المعسكر السابق. لقد كان سميث بعيدًا عن الدفاع عن الوضع الراهن. فهو لم يكن يعيش في عصر تحرري [ليبرتالي]

مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

libertarian بل في عصر ميركنتالي. وكانت الحكومة النشطة وقتذاك هي الممارسة السائدة عندما كتب **بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم** (1776)، وفي الواقع كان هذا الكتاب موجهاً ضد المذهب التجاري mercantilism.

لكن سميث لم يكن مناصرًا للحكومة الصغيرة جدًا أو عدم وجود حكومة على الإطلاق. في الواقع، وكما ذكر نيكولاس فيليبسون Nicholas Phillipson، أفضل كاتب سيرة له، فقد سعى سميث إلى علم للاجتماع البشري يسمح بتعظيم السعادة الإنسانية من خلال القوانين والسياسات الحكومية المناسبة. ولم يكن سميث معارضًا فلسفيًا للحكومة. بل رأى الخلاص العلماني للبشرية من خلال الحكومة. لقد كان إنسانيًا ونفعيًا utilitarian على غرار صديقه المقرب وزميله الشخصية الرئيسية في عصر التنوير الاسكتلندي، ديفيد هيوم David Hume.

يعرض كتاب ليو، بتسلسل زمني، رد الفعل على عمل سميث. فقد ذكرت بشكل صحيح أن الثورة الفرنسية كان لها "أكبر تأثير فوري على استقبال سميث لها." (ص. xxvi). وقد اعتُبر سميث رائدًا للثورة الفرنسية: "بعد عام 1789، حولت شخصيات مثل المركيز دي كوندورسيه Marquis de Condorcet أفكار سميث إلى "صوت الثورة"... وقد عاد ارتباط سميث بالحماسة الثورية الفرنسية، والفتنة، والرأي العام المعارض إلى إنجلترا. بعد وفاة سميث عام 1790، أشارت نعياته إلى أن أفكاره لفتت الانتباه إلى "مواضيع أصبحت لسوء الحظ تحظى بشعبية كبيرة في معظم بلدان أوروبا." (الصفحتان xxvi-xxvii). كما يؤكد صامويل فليشاكر Samuel Fleischacker، وهو من أبرز الباحثين المعاصرين لأفكار سميث، على تأثير سميث على الشخصيات الثورية الفرنسية ومؤيديهم في إنجلترا وأماكن أخرى.

وفي أميركا أيضاً، كان يُنظر إلى سميث في الأصل باعتباره تقدمياً، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أن الآباء المؤسسين لأميركا كانوا أنفسهم تقدميين. ومثل سميث، سعى مؤسسو أميركا إلى تشكيل حكومة نشطة ولكنها ليست شاملة للجميع، جنباً إلى جنب مع مجتمع مكوّن بوجه عام من الطبقة المتوسطة دون التفاوت المفرط في الثروة والفقر. لا توجد كلمة واحدة في كتاب سميث، كما لا توجد كلمة واحدة في كتابات المؤسسين، حول تشجيع نخبة من منتجي الثروة الذين سيخلقون الرخاء للجميع — ولا كلمة واحدة. إن وردت مثل هذه النظرة فإنها كانت ستكون غير متسقة مع وجهة النظر المساواتية egalitarian إلى حد كبير حول طبيعة الرجال الأوروبيين على الأقل، والتي كانت مشتركة لدى سميث والمؤسسين. بالنسبة لسميث، وفقًا لملاحظات سجلها أحد الطلاب لمحاضرة عام 1763 أوردها سميث بشكل مُعدّل قليلاً في كتاب

مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

ثـروة الأمـم: "لا يمكـن لشخصـين أن يكونـا مختلفـين أكثـر فـي عبقريتهمـا مثـل الفيلسـوف والحمّـال، ولكـن لا يبـدو أنـه كـان هنـاك اخـتلاف أصـلي بينهمـا. فخـلال السـنوات الخمـس أو السـت الأولـى مـن حياتهمـا لـم يكـن هنـاك أي اخـتلاف واضـح بينهمـا. بـدأ أسـلوب حياتهمـا يـؤثر عليهمـا، وبـدون شـك لـولا هـذا لكانـا قـد اسـتمرا علـى حالهمـا. إن اخـتلاف الوظـائف يـؤدي إلـى اخـتلاف العبقريـة."[1] هـذه النظـرة للمسـاواة الإنسـانية الطبيعيـة والجوهريـة تختلـف كثيـرًا عـن تلـك التـي يمتلكهـا معظـم المفسـرين الحـاليين لسـميث، ومـع ذلك فهي أساسية لفهم وتقييم فكره.

تقـول ليـو أيضًـا بشـكل صـحيح إن "فهـم وصـول سـميث واسـتقباله المجـازي [فـي أمريكـا] فـي العقـود التـي سـبقت الاسـتقلال الأمريكـي وبعـده يتطلـب إزالـة العديـد مـن الغمامـات المعاصـرة التـي غالبًـا مـا تـؤدي إلـى المبالغـة فـي تقـدير أهميـة سـميث — علـى سـبيل المثـال، فكـرة أن **ثـروة الأمـم** كانـت بمثابـة "طلقـة فكريـة سُـمعت فـي جميـع أنحـاء العـالم عـام 1776." (ص 15). مـرة أخـرى، كـان تـأثير سـميث متنوعًـا ومتعـدد الجوانـب مـع تفسـيرات مختلفـة لـه فـي أوقـات مختلفـة وفـي أمـاكن مختلفـة. ووفقـا لليـو: "بالنسـبة للآبـاء المؤسسـين الأمـريكيين، كانـت أعمـال آدم سـميث بمثابـة كتيبـات إرشـادية لحكـم الدولـة المسـتنيرة." (ص 17). لقـد قـرأ جـيمس ماديسـون وألكسـندر هـاملتون وجـون آدامـز كتابـات سـميث وتـأثروا عمليًـا وفلسـفيًا بسـميث — اسـتخدم آدامـز "أفكـارا مـن كتـاب **نظريـة المشـاعر الأخلاقيـة** لسـميث للتعامـل مـع مـا رآه آدامـز تـأثيرًا اجتماعيًـا ونفسـيًا مثيـرًا للقلـق للثـروة فـي المجتمـع." (ص .17). باختصـار: "إن انتقائيـة ... التفسـيرات والاسـتخدامات تستحضـر الحالـة الجنينيـة للتفكيـر الاقتصـادي السياسـي خـلال أواخـر القـرن الثـامن عشـر وتعـزز فكـرة الاقتصـاد السياسـي كفـرع مـن فـروع فـن الحكـم." (ص 17). كمثـال علـى تنـوع وجهـات النظـر المبكـرة حـول سـميث، أفـاض هـاملتون فـي الاقتبـاس مـن كتـاب **ثـروة الأمـم** فـي الـدعوة إلـى تشـجيع الحكومـة للتصـنيع والرسـوم الجمركيـة المرتفعـة. وكـان كـل مـن جـورج واشـنطن وتومـاس جيفرسـون يمتلكـان نسـخًا من كتاب **ثروة الأمم**، وأشاد به جيفرسون علنًا.

وفقـط بعـد الحـرب الأهليـة، تطـور تفسـير [قيمـة] سـميث كرسـول، أو رسـول، للرأسـمالية. كـان لا بـد مـن ظهـور الرأسـمالية قبـل أن يـتم تشـخيص سـميث علـى أنـه البـادئ بهـا. مثلمـا هـو الحـال مـع التفسـير الخـاطئ لمؤسسـي أمريكـا باعتبـارهم معارضـين أساسـيين للديمقراطيـة ومـدافعين بـارزين عـن الملكيـة الخاصـة، والـذي قدمـه المؤرخـون التقـدميون فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر وأوائـل القـرن العشـرين، فقـد فسَّـر الاقتصـاديون السياسـيون المعاصـرون سـميث بشـكل غيـر صـحيح علـى أنـه أكثـر معارضـة للحكومـة بشـكل مجـرد مما كـان عليـه فـي الواقـع. وبطبيعـة الحـال فـإن سـميث لـم يكـن مـن دعـاة الاشـتراكية (التـي تُفهـم علـى أنهـا إدارة الدولـة المباشـرة للنشـاط الاقتصـادي). ولكـن هنـاك فـرق كبيـر بـين

مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

ما يمكن أن نطلق عليه "الرأسمالية الديمقراطية" — وهي في الأساس أسواق حرة لإنتاج وتبادل السلع، مقترنة بالحكم الديمقراطي ودور مهم ولكن ليس شاملاً للحكومة — والليبرتارية كما تُمارس الآن (المعارضة الخطابية المتطرفة للحكومة مقترنة بقليل من المعارضة الفعالة لها والدعوة إلى أدنى معدلات ممكنة للضرائب على الدخول العالية وعلى العقارات). كان سميث بهذا المعنى رأسماليًا ديمقراطيًا، وليس ليبراتاليًا.

لقد فضَّل سميث بعض الضرائب التصاعدية وأنشطة دولة الرفاهية الحكومية الناشئة. وقد لاحظ المؤرخ العظيم للفكر الاقتصادي جاكوب فاينر Jacob Viner أن سميث "لم يكن مؤيدًا عقائديًا لسياسة عدم التدخل laissez-faire. لقد رأى نطاقًا واسعًا ومرنًا أمام النشاط الحكومي، وكان مستعدًا لتوسيعه إلى أبعد من ذلك."[2] ووفقًا لتوماس سويل Thomas Sowell: "إن مذهب المساواة Egalitarianism منتشرة في كتابات سميث".[3] وقال جيمس بوكانان James Buchanan إن "عاد آدم سميث فإنه سيكون بعيدًا كل البعد عن الفوضويين الليبرتاليين المعاصرين."[4] ولاحظ جون ماينارد كينز إن "عبارة عدم التدخل لا يمكن العثور عليها في أعمال آدم سميث... وحتى الفكرة ليست موجودة بشكل عقائدي."[5]

ومع توسع الرأسمالية الصناعية على نحو غير مسبوق في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ضاع سميث التقدمي. ومن وجهة نظر الاقتصاد الرسمي والشائع، فقد حل محله إلى حد ما في الولايات المتحدة، أولاً جان بابتيست ساي ثم جون ستيوارت ميل. ومع ذلك، وخاصة مع الذكرى المئوية لإصدار كتاب **ثروة الأمم** في عام 1876، فقد شهد عملية إحياء، عززها باقتدار الباحث البريطاني الكبير في أفكار سميث إدوين كانان Edwin Cannan ، الذي أكد على دعم سميث للعدالة الاقتصادية التوزيعية.

كانت القضية الكبرى آنذاك بالنسبة لإنجلترا هي تعزيز التجارة الحرة، وكان عمل سميث مناسبًا بشكل مثير للإعجاب. وكما أدرك فريدريك هايك، فإن المساهمة الأكثر أهمية التي قدمها سميث كانت التأكيد على أهمية وفوائد التجارة الحرة، وليس وجود حكومة صغيرة للغاية أو معدومة. هناك فرق كبير بين مبادئ التجارة الحرة (يجب أن يكون التبادل الاقتصادي، وخاصة الواردات والصادرات، غير مقيد) — وهو ما أيده سميث بحماس — ومبدأ عدم التدخل (يجب أن تلعب الحكومة دورا صغيرا للغاية) — الذي لم يكن يفضله بنفس الحماس تقريبا. وقد أوضح هايك ذلك في كتابه **الطريق إلى العبودية** (1944): "إن مسألة ما إذا كان ينبغي للدولة أن "تتصرف" أو

مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

"تتدخل" أو لا [إن هذه المسألة] تطرح بديلًا خاطئًا تمامًا، وأن مصطلح عدم التدخل هو وصف غامض ومضلل للغاية للمبادئ التي تقوم عليها السياسة الليبرالية"؛ [المطلوب هو] "خلق الظروف التي تكون فيها المنافسة فعالة قدر الإمكان، وتكميلها حيثما لا يمكن جعلها فعالة، وتقديم الخدمات التي، على حد تعبير آدم سميث،

> "على الرغم من أنها قد تكون على درجة عالية من الفائدة لمجموعة كبيرة من الناس هي مع ذلك بفضل طبيعتها بحيث لا يمكن للربح أبدًا أن يسدد التكلفة لأي فرد أو لعدد صغير من الأفراد،"

توفر هذه المهام مجالًا واسعًا لا جدال فيه لنشاط الدولة. لا يمكن لأي نظام يمكن الدفاع عنه بعقلانية أن لا تفعل فيه الدولة أي شيء."[6] لقد كان التزام سميث الحاسم هو تحرير التجارة في الخارج وفي الداخل، وليس مبدأ عدم التدخل بمعنى وجود حكومة صغيرة جدًا أو عدم وجود حكومة على الإطلاق.

خلال فترة الكساد الكبير، تم التقليل من شأن أفكار سميث والاستخفاف به باعتباره مبسطًا وغير ذي صلة. وكانت أفكار كينز التي تدعو إلى المزيد من النشاط الاقتصادي الحكومي بحسب مقتضى الحال هي المهيمنة. تُلفت ليو الانتباه بشكل مناسب إلى حقيقة أنه، على الرغم من المفاجأة، فإن استعارة "اليد الخفية" لم تستخدم إلا قليلاً لوصف أعمال سميث قبل القرن العشرين: "إن صورة ["اليد الخفية"] بالكاد لاحظه خلفاء سميث المباشرين ... وكانت غائبة فعليًا في المناقشات حول التجارة الحرة في القرن التاسع عشر ... ولكن، بحلول منتصف القرن العشرين، بدأ الاقتصاديون في تخصيص درجة من الأهمية لفكرة سميث هذه تجاوزت التفسيرات السابقة."(ص 241).

تعطي ليو دورًا مركزيًا للكتاب المؤثر لبول ساموبلسون **الاقتصاد** في البدء باستخدام عبارة "اليد الخفية" بشكل أكبر عند مناقشة سميث. وقد صور ساموبلسون "اليد الخفية باعتبارها مقدمة للنظريات التأسيسية في الاقتصاد الحديث مثل المنافسة الكاملة والتوازن العام." (ص 242). كما أنها تؤكد على دور ميلتون فريدمان وجورج ستيجلر George Stigler في إشاعة هذا الرأي: فريدمان وستيجلر "قاما بتبسيط صورتهما عن سميث لتكون أكثر انسجاما مع هيمنة نظرية الاختيار العقلاني rational choice theory والدعوة القوية للسوق." (ص 192-193). في الواقع، كان سميث يقصد بـ "اليد الخفية"، يد الله وليس يد السوق. فقد كان يعتقد أنه عندما

مراجعة كتاب في التاريخ الفكر الاقتصادي

يسعى الأفراد إلى تحقيق مصلحتهم الذاتية ضمن مفهوم واسع ومستنير للصالح الذاتي، فإنهم يمشون وراء إله يعمل على تعظيم المنفعة لتعزيز السعادة العامة. من المؤكد أن آدم سميث لم يوصي بالجشع أو الأنانية، وأن الأسواق لا تحتاج إلى تنظيم أو رقابة، وأن الحكومة لا ينبغي أن يكون لها دور يذكر، وأن الحكومة لا ينبغي لها أن تهتم بمنع الفجوات الاقتصادية في المجتمع من أن تصبح أو تظل ضخمة للغاية.

وكما رأى هايك، فإن أعظم مساهمة لسميث كانت في توضيح أن النشاط الاقتصادي يكون بشكل عام أكثر فعالية عندما تسمح الحكومة للأفراد بالتعامل بحرية، وتلعب دورًا صغيرًا في إدارة تفاصيل صنع القرار الاقتصادي، وتقيد من دورها الاقتصادي في معظم الأحيان ليقتصر على إنشاء اطار مؤسسي أكبر. تذكرنا گلوري ليو أن الأجيال السابقة نظرت إلى سميث بشكل مختلف عن أجيالنا، ولهذا السبب من المرجح أن تفعل الأجيال القادمة نفس الشيء. ومن خلال تتبع تطور تفسيرات فكره، قدمت مساهمة كبيرة ودائمة للكتابات عن سميث. ■

References

[1] Adam Smith (R. L. Meek, D. D. Raphael, and P. G. Stein, eds.), *Lectures on Jurisprudence* (Oxford: Oxford University Press, 1976), p. 348.

[2] Jacob Viner, *The Long View and the Short: Studies in Economic Theory and Practice* (Glencoe, IL: Free Press, 1958), p. 244.

[3] Thomas Sowell in Gerald P. O'Driscoll (ed.), *Adam Smith and Modern Political Economy* (Ames, IA: Iowa State University Press, 1979), p. 5.

[4] James Buchanan in ibid., p. 117.

[5] John Maynard Keynes in William Ebenstein, *Great Political Thinkers: Plato to the Present*, 4th ed. (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1969), p. 674.

[6] Friedrich Hayek, *The Road to Serfdom* (London: Routledge & Kegan Paul, 1986 [1944]), pp. 29, 60.

Copyright (c) 2023 by EH.Net. All rights reserved. Published by EH.Net (September 2023). All EH.Net reviews are archived at http://www.eh.net/book-reviews.

(*) تعرّف گلوري ليو Glory M. Liu نفسها كما يلي:

I am the Assistant Director for the Center for Economy and Society and Assistant Research Professor at the SNF Agora Institute at Johns Hopkins. My research interests are in the history of political thought, intellectual history, and political economy.

(**) Lanny Ebenstein لاني إبنشتاين محاضر مستمر في قسم الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا، سانتا باربرا.

Lanny Ebenstein is a Continuing Lecturer in the Department of Economics at the University of California, Santa Barbara. He is the author of many books and articles, including the first biographies of Milton Friedman and Friedrich Hayek, and is currently at work on books on taxation and "The Progressive Adam Smith."

(***) مصباح كمال، باحث وكاتب في قضايا التأمين وفي الشأن الاقتصادي

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر. 18 أيلول 2023

http://iraqieconomists.net/ar/